مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب المجلد 10 العدد 1ج، 2013، ص ص 905- 933

مأساة "رستم وسهراب"/ دراسة تتبعيّة وصفيّة

عارف أحمد الزغول*

ملخص

يتناول هذا البحث بالدراسة والتحليل قصة رستم وسهراب التي تعدّ من أشهر قصص التراجيديا وأقواها في ملحمة الفرس الشّعرية "الشاهنامه"، التي نظمها الفردوسي في أواخر القرن الرابع الهجري، وألقى الضوء من خلالها على آمال وآلام أمة سادت المعمورة لآلاف السنين. وتُركّز الدراسة في هذه القصّة _ التي يلقى فيها الفارس الشّاب "سهراب" مصرعه على يد والده "رستم" دون أن يعرف أحدهما الآخر_ على القوّة المرعبة للقدر المكتوب على الجبين، الذي لا يمكن الإفلات منه بالحذر والتدبير، كما تركز أيضاً على جانب النبوغ الأدبي لدى الفردوسي، إضافةً إلى تركيزها على المنزلة الرفيعة التي بلغتها هذه القصة، مقارنة بمثيلاتها في الآداب العالميّة؛ إذ عدّها النقّاد واحدةً من أعظم قصص التراجيديا وأكثرها إثارة وقوة.

الكلمات المفتاحيّة: الشاهنامه، الفردوسي، رستم، سهراب، التراجيديا.

المقدمة:

يُعدُّ الأدب الفارسي من الآداب العريقة التي اشتملت على أدب ملحميّ راق، اختزل بين جنباته نضالات أمة على مدى قرون طويلة، تجاوزت آلاف السنين، وقد عمل الشاعر الفارسي الكبير "أبو القاسم الفردوسي" على جمع شتات الأدب الملحمي في كتاب شعري ضخم سماه "الشاهنامه" بعدما كان مبعثراً هنا وهناك على شكل روايات نثرية دوّنها وجمعها "أبو منصور محمد بن عبد الرزاق"[(1)] في كتاب نثري باللغة الفارسية الإسلامية؛ وقد أصبح هذا الكتاب المرجع الرئيسي للفردوسي في نظم الشاهنامه[(2)].

إن الشاهنامه التي نظمها الفردوسي شعراً، على قالب المزدوج "المثنوي" جاءت على وزن البحر المتقارب (فعولن فعولن فعولن فعل) واستغرق نظمها ثلاثين عاماً (370 – 400هـ. ت)[(3)]، وهي بدون شك تُعدُّ عملاً ملحمياً ضخماً يتألف من ستين ألف بيت من الشعر، تحدث فيها الشاعر عن آمال أمة الفرس، وآلامها، وعن صراعها المرير منذ بداية تشكل الإمبراطورية الفارسية

© جميع الحقوق محفوظة لجمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2013.

* قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة اليرموك، إربد، الأردن.

حتى أفول نجمها وانهيارها على يد العرب المسلمين الذين هزموا جيوش يزدجرد الثاني في معركة القادسية.

تتألف الشاهنامه من ثلاث مراحل تكمل بعضها بعضاً؛ أولها المرحلة الأسطورية، وثانيها مرحلة الفروسية، وآخرها المرحلة التاريخية. وتُعد مرحلة الفروسية من أجمل مراحل الشاهنامه؛ لأنّ هذا الجزء يحتوي على أقوى قصص الحرب والحب والتراجيديا، كما أن القارئ يتعرف من خلاله على فرسان الشاهنامه الكبار الذين خاضوا غمار حروب طاحنة ضد أعداء إيران من طورانيين، وروم، وعرب، كما يعاين القارئ ولع هؤلاء المحاربين بالخمرة والحرب والحب والطرب، سيما عندما يصمت صليل السيوف ويخبو وقع سنابك الخيل. وقد وصف المستشرق الألماني "نولدكه" وهو متخصص في الشاهنامه هذه الملحمة بقوله: "إن روح الفروسية تموج في جميع أرجاء الملحمة التي تمتدح شدة بأس محاربي العصور القديمة، وقوة شكيمتهم في ميادين النزال، بلغة صلبة ورزينة، ملحمة تمتزج فيها ضوضاء الحرب، وصليل السيوف مع صيحات الطرب، وهمسات الفرسان العاشقين للشراب والحسان"[(4)].

تشتمل الشاهنامه كأي ملحمة أخرى على قصص حب، وغرام، وتراجيديا، تشكلت أحداثها إلى جانب روايات الحرب الطاحنة التي ترتعد لهولها الجوارح. ومن هذه القصص: قصة عشق سياوش، وقصة بيجن ومنيجه، وقصة رستم واسفنديار، وقصة رستم وتهمينه، وتراجيديا رستم وسهراب التي نحن بصدد تحليلها.

ومن الجدير بالذكر أن الشاهنامه واحدة من ثلاث روائع ملحمية جادت بها أذهان خلاقة لأدباء خلدتهم أقلامهم الموهوبة، وهذه الملاحم هي: الأليازة والأوديسه لـ "هوميروس"، ورامايانا ومهابهاراتا لحكيم الهند "وياسا"، والشاهنامه للفردوسي[(5)].

إن الشاهنامه كأثر ملحمي لأمة ذات تاريخ سحيق وحضارة موغلة في القدم، تتحدث في مجملها عن الحروب التي خاضتها الأمة الفارسية للحفاظ على استقلالها وحضارتها، ويلمح القارئ بين ثناياها معظم المظاهر والجوانب الثقافية والحضارية للأمة الفارسية ويتعرف من خلالها على أديان الفرس ومذاهبهم، وأخلاقهم وفلسفتهم في الحياة، وعلى طقوسهم المختلفة في الحرب والحب والزواج واحتساء الخمرة في مجالس لهوهم وطربهم، وقد نظمها الفردوسي شعراً بلغة تُعدُ أنموذجاً في الفصاحة والبلاغة وعمق الدلالة وقوة النبرة وروعة الجرس مما حدى بـ "ابن يمين الفريومذي"[(6)] أن يجزم بأن الكلام في البدء كان فوق العرش قبل هبوطه، فأخذه الفردوسي وأعاده ثانية إلى أعالي السماء"[(7)]؛ كما أن "عروضي السمرقندي"[(8)] الذي كان يعيش بعد الفردوسي بقرن ونيف، أدرك عظمة الفردوسي وشعره إذ قال: "لقد أوصل الفردوسي الكلام من حيث الرفعة إلى أعالي السماء، ومن حيث العذوبة إلى مرتبة ماء المعين، فأنّى لشاعرٍ هذه المقدرة

الفذة على إيصال الكلام للدرجة التي أوصله الفردوسي إليها، فأنا لم أر كلاماً بهذه الفصاحة في كلام العجم، وفي كثير من كلام العرب"[9].

وكان الفردوسي على يقين بأن الشاهنامه التي نظمها سوف يكون لها شأن عظيم على صعيد الأدب الفارسي، والأدب العالمي، وقد عبر عن ذلك بقوله:

تتهاوي القصور العظيمة وتنهار، بفعل السيول الجارفة والرياح العاتية، أما أنا فقد شيدت من النظم قصراً منيفاً، ليس للخراب والدمار إليه سبيلٌ، لقد نقت الأمرين خلال هذه الأعوام الثلاثين، فأحييت أمة العجم بهذا الشعر الفارسيّ، لن أموت بعد الآن فقد كُتبت لي الحياة، لأنني بذرت بذور فصيح الكلام"[10].

أحداث القصة ومجرياتها:

في صبيحة أحد الأيام، أحس الفارس الإيراني الكبير "رستم"[11] بضيق شديد، ووجد في نفسه رغبة جامحة للخروج في طلب الصيد؛ فامتطى صهوة جواده "رخش"[12] وسار بحثاً عن طريدة يصطادها، فقاده الترحال إلى تخوم "الطورانيين"[13] الأعداء اللدودين لإيران، وقد اصطاد بعض الحمر الوحشية، وبعد أن شوى إحداها وتناوله بالكامل، غط في نوم عميق، وعندما استيقظ من نومه لم يجد حصانه "رخش" فراح يبحث عنه، وقاده أثر الحصان إلى مدينة "سمنجان"[14] التابعة للطورانيين؛ فاستقبله ملك سمنجان استقبالاً يليق بفارس مثله، وأنزله في قصره، وأقام له وليمة مهيبة حضرها نخبة من الأمراء والفرسان الطورانيين، وشرب الجميع كؤوسهم في جو حافل بالطرب وأنغام الموسيقى، وحينما أوى الفارس الضيف إلى فراشه جاءت إلى حجرته حسناء طورانية تخلب الألباب بجمالها، وطلبت منه أن يتزوجها، لأن الهوى تمكن منها وتغلب على عقلها من جهة، ولكونها تطمع في أن يكون لها ولد فارس، من سلالة فارس إيران "رستم" من جهة أخرى، تلك الحسناء المتيمة لم تكن سوى "تهمينه" ابنة ملك "سمنجان"، انتهز "رستم" هذه الفرصة، وتزوج "تهمينة" حسب الأصول المرعية، والتأم الشمل لليلة واحدة فقط، انعقدت خلالها نطفة مأساة مروعة ترقّ لهولها قلوب أعتى الرجال والفرسان، وعندما اقتربت لحظات الفراق أعطى رستم لزوجته "تهمينه" خرزة على سبيل الذكرى:

أعطاها الخرزة وقال لها، احتفظي بها، فإن رزقك الدهر طفلةً، فاجعليها في ظفيرة شعرها، كعلامة حسن طالع وفال طيب، وإن رزقتك السماء ولداً، فاربطي الخرزة في ساعده علامة من أبيه، فبدون شك سيكون طويل القامة كنريمان[15]، وسيكون فارساً مغواراً كريم السجايا[16].

في الصباح عثر رستم على جواده، وبعد أن ودّع زوجته "تهمينه"، سارع في العودة إلى إيران، ولم يمض وقت طويل حتى تحققت أمنية "تهمينة"، وأنجبت ولداً يحمل معظم صفات الفروسية التي يتمتع بها والده، وسمته أمه "سُهراب":

تحسبه رستم الفارس ذا الهيكل الضخم، أو سام[17] الشجاع أو نيرم[18]، وعندما ترعرع وتألق محياه، اختارت له تهمينه سهراب إسما[19].

عندما بلغ "سهراب" العاشرة من عمره أصبح فارساً صلباً ومقاتلاً لايشق له غبار، وما كان بمقدور أحد أن ينازله، وكان هذا الفارس اليافع مدركاً بأن الله قد حباه قوة غير عادية، لكنه لم يكن يعلم شيئاً عن والده؛ مما دفعه إلى الإلحاح على والدته كي توضح له هذا الأمر، فخاطبته بقولها:

إنك ابن الفارس الكبير رستم، ومن سلالة دستان[20] وما استعلائك إلا لأنّ ذلك البيت أصلك[21].

بعد أن أطلعت "تهمينه" ابنها على والده ونسبه، ألحت عليه أن لا يخبر الملك الطوراني "أفراسياب" عن نسبه حتى لا يدفعه حقده على "رستم" إلى الفتك بولده "سهراب"، كما طلبت من "سهراب" أن لا يبرح أرض "طوران"[22]، ويلحق بأبيه في إيران لأنها تخشى عليه من نوائب الدهر ولا تطيق فراقه.

خطة سهراب:

على الرغم من أن سهراب كان آنذاك فتى يافعاً، إلا أنه كان يفكر بعقلية الفرسان الكبار الناضجين، وكان تواقاً إلى أن يرى نهاية للحرب الضروس التي تدور رحاها باستمرار بين إيران وطوران، ودار في خلده أن يُخلّص إيران وطوران من كل هذا العناء، ورأى أن يقود جيشاً جراراً من طوران، يحتل بواسطته إيران وينهي حكم الملك الفارسي "كيكاووس"[23] ويقتلع ملكه من الجذور، ويُنصّب أباه رستم ملكاً على إيران، ثم يهاجم المملكة الطورانية، ويطيح بالملك الطوراني "أفراسياب" وتتوحد إيران وطوران تحت راية ملك واحد كي يتربع رستم "وتهمينه" على عرش ذلك الملك:

حين يكون رستم أبي وأنا ابنه، يجب ألا يبقى على وجه الأرض صاحب تاجٍ آخر، فحين تسطع الشمس بأنوارها، فمن أين للنجوم مجالٌ للظهور؟[24].

همّ سهراب بتنفيذ خطته، وبدأ بالبحث عن جواد باستطاعته أن ينوء بحمل فارس ضخم مثله، ووجد ضالته المنشودة بعد أن أحضروا له مُهرا من سلاسة حصان أبيه "رخش"، ثم

استأذن جده لأمه يعنى ملك مدينة "سمنجان" كي يسمح له بغزو إيران، وملاقاة والده والإطاحة بمُلك "كيكاووس" واجتمع حول "سهراب" جيش جرّار من الطورانيين، لكن ملك الطورانيين "أفراسياب" الذي علم بوجود سهراب فيما بعد راح يتوجس منه خيفة، ووجد الفرصة مناسبة للتخلص من "رستم" على يد ابنه "سهراب" كي يتمكن بعد ذلك من مهاجمة إيران واحتلالها، الأمر الذي يبدو ضرباً من المحال بوجود "رستم"، وفي سبيل الوصول إلى هدفه أوعز "أفراسياب" لفارسين من دهاة فرسانه كي يرافقا جيش "سهراب"، ويحولا دون تعرف الابن على والده:

يجب أن لا يعرف الابن والده، من خلال التآلف الروحيّ والعاطفي، فعندما يتقابلان وجهاً لوجه، فإن رستم سيبادر خصمه بالنزال، فلعلّ هذا الفارس العجوز يلقى حتفه على يد هذا الأسد الهصور، فنصبح قادرين على فتح إيران، وتضييق الخناق على الملك كاووس، وعندئذ نتدبر أمر سهراب، ونقضي عليه تحت جنح الظلام وإن قتل على يد والده رستم، فإن عزيمة والده سوف تخور[25].

كانت خطة أفراسياب خطة ماكرة وخبيثة، فهو يريد أن يقضي على "رستم" على يد ابنه "سهراب" أو أن يحطم عزيمة "رستم" بمصرع "سهراب" على يد والده، فيخلو له الميدان وينتزع ملك إيران دونما عناء.

إن "رستم" الذي نعرفه من خلال ملحمة الفرس يعنى الشاهنامه ليس مجرد فارس مغوار وبطل قهار يهزم خصوم إيران على الدوام، بل يمثل شخصية عسكرية فذة يجتمع فيها مزيج من العقل والحكمة، والقوة والشجاعة، والصبر والتضحية، والقارئ للشاهنامه يُكبر في هذا البطل الأسطوري صلابته في إدارة المعارك، ورباطة جأشه في منازلة الخصوم وذوده عن حمى بلاده وقهره لأعدائها الطورانيين، ومما لاشك فيه أن إبعاده عن ميادين القتال بأيّ نحو كان، أو تحطيم عزيمته سيحدث خللاً في موازين القوى بين إيران وطوران؛ ولذلك كله نرى "أفراسياب" الطوراني يحيك هذه الدسيسة الخبيثة، ويمهد لوقوع ماساة مؤلمة تدمي المآقي والقلوب[26].

رحلة البحث عن الأب:

زحف سهراب بجيشه صوب إيران واحتلّ قلعة إيرانية حدودية، وأسر قائد حامية القلعة المسمى "هُجير"[27] ليحصل منه على معلومات عسكرية، وليساعده في التعرف على والده رستم كي يتحاشى الصدام معه، وسرعان ما وصلت أخبار هذا الهجوم إلى إيران بواسطة الرسالة التي كتبها "كجدهم"[28]، وهو أحد حراس القلعة الحدودية إلى الملك كيكاووس، وتحدث فيها عن قائد طوراني لم يُرَ بشجاعته أحد قط من بين محاربي إيران وتوران، ويشير في رسالته إلى أن هذا

الفارس المهاجم يشبه "رستم" و"سام" و"نيرم" إلى حد بعيد: ولم ير أحد فارساً مثله ولايشبه من الفرسان إلاّ سام.

ويستطرد حارس القلعة "كجدهم" في وصف شجاعة سهراب، ويؤكد أن هذا الفارس الصنديد شبيه بـ "رستم" و"سام" و"نيرم"؛ لأن فرسان هذه الأسرة رمز لفروسية وشجاعة العرق الآري الذي يهزم أعداءه على الدوام.

عرض الملك "كيكاووس" رسالة "كجدهم"على قادة وفرسانه، وتحدث لهم عن ذلك القائد الطوراني الذي أثار الرعب في قلوب محاربي إيران، فأشاروا عليه جميعاً أن يرسل رسولاً إلى "رستم" يطلب منه التصدي لهذا الخطر المحدق بمملكة إيران، واختار "كيكاووس" الفارس "جيو"[29] وأرسله رسولاً لرستم يطلب منه التحرك بسرعة للتصدي لجيش طوران وقهر قائده الجسور: فارس جسور وشجاع قوي كفيل غاضب وشجاعٌ كأسد هصور لا قِبَل لأحد به من فرسان إيران، فليس أحد غيرك يصلح لملاقاته[30].

عندما وصلت الرسالة ليد "رستم" تعجب من ظهور فارس شبيه به وبآبائه وأجداده، وفكر للوهلة الأولى بأن يكون هذا الفارس هو ابنه "سهراب"، لكنه اعتقد أن "سهراب" مازال صغيراً على قيادة الجيوش واحتلال الممالك: إن لي إبناً من إبنة ملك سمنجان وهو لم يتأهل لمغامسة الحروب بعد، ذاك الصبيّ الغالي مازال غرّاً ولم يتمرّس بعد على فنون القتال والنزال، فمحال أن يكون هذا العمل من صنع ذاك الصغير مهما كان جسوراً وشجاعاً[31].

ساورت "رستم" حالة من الخوف والتوجس، وحال إحساس داخلي مبهم بينه وبين امتثال أوامر الملك "كيكاووس"، وشغل نفسه باللهو والشرب لأنه متشائم من مواجهة خصم قد يكون ابنه "سهراب"، ووافق في نهاية المطاف وأمام الحاح "كيكاووس" وفرسان إيران على ما كلفه به الملك، لكن "كيكاووس" غضب من تلكؤ "رستم" وتأخره عن الحضور إلى بلاطه وأمر الفارس "جيو" أن يصلب "رستم" حيّاً، ولم ينفذ "جيو" هذا الأمر، فأمر كيكاووس أن يقوم الفارس "طوس" بشنق كل من "كيو" و"رستم"، وغضب "رستم" غضباً شديداً وخاطب الملك "كيكاووس" بقسوة واستخفاف.

عندما أغضب لا أحسب حساباً لكاووس، من هو كاووس؟ ومن هو طوس؟ لست عبداً ليسبب لي طوس أيّ أذى ولن أكون عبداً إلا لله الباري لقد دعاني الفرسان لتسلم الملك وهيأوا لي العرش والتاج، فزهدت في الملك، ولم التفت إليه، وحافظت على تقاليد الفروسية، ولو قبلت العرش والتاج لما ظفرت يا كاووس بهذا الجاه[32].

لقد أغلظ رستم القول للملك، وأفهمه أنه فارس احترم قواعد الفروسية، ولو كان له أدنى رغبة بالملك، لما كان "كيكاووس" جالساً على عرش إيران، ولم يرق هذا النزاع بين الملك و"رستم" لقادة الجيش الإيراني، وتوسطوا لإنهاء الخلاف توحيداً للصفوف أمام الخطر الطوراني الماثل أمامهم، وأقنعوا "كيكاووس" بأن يعتذر من "رستم"، ويفوت الفرصة على الخصوم الطورانيين، وتم الصلح بين الجانبين، وسار الملك و"رستم" في مقدمة جيش عظيم لمواجهة قائد الجيش الطوراني يعني "سهراب"، ونصبوا خيامهم في مواجهة خصومهم، لقد صاغ الفردوسي هذا الجزء من القصة بأستاذية فذّة، لأنه صور "رستم" وكأنه غير متحمس للقاء هذا الفارس الطوراني، ليس خوفاً منه بل خشية أن يكون هذا الفارس هو ابنه "سهراب" الذي شبّ وترعرع بين الطورانيين، ولم يسبق لهما أن شاهد أحدهما الآخر، فالقارئ أو المصغي لهذه القصة يتمنى أن يتأخر "رستم" في الدخول إلى مسرح الأحداث حتى لا يقع ما لا تحمد عقباه[33].

وقف "كيكاووس" و"رستم" يراقبان معسكر الطورانيين، وكان "سهراب" وخاله "زنده رزم"[34] يحتسيان الخمرة، وكانت مهمة "زنده رزم" هي تعريف "سهراب" على والده "رستم" حتى لا يقتل أحدهما الآخر، فها هي "تهمينه" توصي أخاها زنده رزم بقولها: عندما يصل سهراب البطل حدود إيران ويقترب من والده فارس الفرسان، وعندما يلتحم الجيشان في أتون القتال، عَرّف الابن سهراب على والده رستم[35].

لكن رستم تسلل تحت جنح الظلام واقترب من خيمة "سهراب" و"زنده رزم"، فنهض "زندة رزم" ودار حول الخيمة فعاجله "رستم" بضربة قاضية أجهزت عليه فوراً، وبذلك تدخلت يد القدر وغيبت من كان سيدل "سهراب" على أبيه، ومهدت لتشكل أول خيوط هذه المأساة المروعة، علم سهراب بمصرع خاله "زنده رزم"، لكن ذلك لم يزده إلا إصراراً على مواصلة ما جاء من أجله ألا وهو الإطاحة بـ "كيكاووس" و"أفراسياب"، وتوحيد إيران وطوران تحت راية واحدة يرفعها "رستم" والد "سهراب"، لكن عقبة كأداء اعترضت طريقه ومات من كان سيدله على أبيه، ألا وهو خاله "زنده رزم"، ولم يبق أمام سهراب إلا الاستعانة بالفارس الإيراني الأسير "هجير" للتعرف على أبيه رستم.

صعد سهراب مع "هجير" الأسير إلى ربوة عالية تشرف على معسكر الإيرانيين، وتفحص خيام القادة خيمةً خيمة سائلاً هجير عن اسم كل واحد من أولئك الفرسان، وكان "هجير" يوضح له أسماء القادة، واحداً واحداً، حتى سأله عن سرادق كبير يجلس امامه فارس لا شبيه له، وكان ذلك السرادق، سرادق "رستم"، لكن "هجير" امتنع عن البوح بهوية "رستم" خوفاً عليه من هذا الفتى الطوراني الجسور: من هذا الفارس العملاق الذي ترتفع الراية الملكية فوق رأسه، وتطاول

قامته عنان السماء ويبدو أطول من كل أقرانه المحاربين ومنقوش على رايته صورة تنين مرعب وعلى رمحه صورة أسد من ذهب[36].

أصرّ "هجير" على أن كل ما يعرفه عن هذا الفارس هو أنه جاء من بلاد الصين، وحلّ ضيفاً على ملك إيران: فارس شهم جاء من بلاد الصين والتحق بجيش الملك العظيم حزن سهراب حزناً شديداً لأنه لم يعثر على أثرٍ لأبيه فقد أعطته أمه تهمينه أوصاف والده وها هو يشاهد تلك الأوصاف يريد الخبر اليقين من هجير حتى يطمئن بأنه أدرك مبتغاه لكن القدر المكتوب على الجبين واقع لا محالة دونما زيادة أو نقصان[37].

لغز المأساة:

إن هجير فارس إيراني غيور مخلص لوطنه، وقد دفعه هذا الإخلاص للتكتم على شخص القائد "رستم"، فلم يدل "سهراب" عليه؛ خشية من أن ينال منه وتخسر مملكة إيران أهم مقومات بقائها وصمودها أمام أعدائها؛ فحزن "سهراب" حزناً شديداً لعدم تمكنه من التعرف على والده "رستم"، ومع أن قلبه وإحساسه والأوصاف التي ذكرتها والدته كلها تشير إلى أنّ أباه هو ذاك الفارس الذي يتربع في ذلك السرادق الكبير، إلا أن "هجير" أصرّ على تكتمه، وكأن خيوط مصرع "زنده رزم"، وإنكار "هجير"، وقدر السماء وتقديرها تشابكت وتداخلت معاً، وكونت سدى مأساة رستم وسهراب ولحمتها: سأله عن والده فلم يخبره وأبقى على الحقيقة طي الكتمان إنك لا تملك التصرف بناموس الكون فالبارئ فرغ من صنعه وتقديره، فالمقدر والمكتوب شيء وما نريده شيء آخر، ولا سبيل إلى تغيير ماهو كائن[38].

إن الفردوسي يؤكد أن القدر يخبئ مصيراً آخر لِـ "سهراب"، ولا يمكن لأحد أن يغيرشيئاً مما تخبئه الأقدار، ويتضح ذلك من خلال مجريات قصة رستم وسهراب، فهاهو "رستم" يقتل "زندة رزم" عن غير قصد، كما أن "هجير" الأسير يمتنع عن تعريف "سهراب" على والده "رستم"، وتتعقد الأمور كلما اقتربنا من نهاية القصة وتصبح أكثر تعقيداً، لأن لغز القدر في الآداب العالمية بشكل عام يؤدي الدور الرئيسي في صنع المأساة والتراجيديا[39].

كان سهراب على يقين بأن "هجير" يتستر على الحقيقة ولا يفصح عن شخصية رستم، لذلك حاوره بمنطق وعقلانية: قال له سهراب، هذا ليس عدلاً أن لا تشير إلى رستم مطلقا، رستم الذي يتربع على عرش الفروسية لا يمكن أن يبقى في الخفاء، لقد قلت بأنه قائد الجيش وحامي حمى إيران وحدوها، فعندما يسيّر كاووس الجيوش، ويحمل عرشه وتاجه إلى ميدان القتال، فلا بد أن يكون رستم في (المقدمة) طليعة الجيش عندما تقرع طبول الحرب والنزال[40].

لكن "هجير" أمعن في تستره وإنكاره، ونفى أن يكون رستم في صفوف الجيش وقال:

أجاب هجير على تساؤلات سهراب لعلّ ذلك الفارس الشجاع قد ذهب إلى مسقط راسه زابلستان، فهذا فصل الربيع وأيام الشرب[41].

إزداد غضب "سهراب" ودحض تبريرات هجير: قال له سهراب: هل يُعقل أن يتوجه الملك للحرب وياتي المحاربون لنصرته من كل حدب وصوب بينما يجلس رستم في مجالس لطرب؟ إن هذا لإفك عظيم[42].

إن تصورات "هجير" لايقبلها عقل ولا منطق، فلا يعقل أن ينهمك رستم بالشرب والطرب في زابلستان، بينما توشك حرب ضروس أن تندلع بين إيران وطوران، لكن هاجس الخوف الذي ساور هجير على مصير رستم أبقاه متمسكاً بموقفه، لقد هاله وأفزعه ما رآه من بطش "سهراب"، وقوة شكيمته وأصبح قلقاً على "رستم" و"كيكاووس" من صولة هذا الطوراني الذي يبحث عن معركة: قال هجير الغرّ لنفسه أن أعطيت أوصاف رستم لهذا الطورانيّ الشجاع الذي تبدو عليه علامات العظمة، فسيجمع فرسان جيشه وسيستفز رستم للقتال فارس بهذه القوة والعنفوان قد يلاقي رستم حتفه على يديه، فلا أحد من الفرسان المحاربين يجرؤ على مقابلته وجهاً لوجه، ولن يتسنى لفارس من إيران أن يواجهه، وبذلك يستولي على عرش كاووس[43].

بعد هذه الهواجس ثارت ثائرة "هجير" وخاطب "سهراب" بحدة: قال هجير ما هذا الاضطراب؟ فكل كلامك معي حول رستم لماذا كل هذا الحقد والبغض ولماذا تضيع وقتك معي بالباطل فأنا لست على علم برستم فالوصول إلى السماء مستحيل فالأولى بك ألا تطلب ملاقاته فإنك لا تطيق مقاومته[44].

منازلة الأب والابن:

حينما سمع سهراب هذا الكلام غضب غضباً شديداً، وضرب "هجير" بعنف ثم عاد إلى جيشه وأعدّه للحرب والنزال، وأغار على معسكر الإيرانيين فراح فرسان إيران يروغون من أمامه ويتحاشون منازلته؛ مما مكنّه من الوصول إلى "كيكاووس"، وضمن إهانته له طلب منه أن يُخرج إليه قرن وند كي يبارزه أمام الجيشين،فأرسل كيكاووس في طلب "رستم" ليبارز "سهراب" الذي أرهب الجميع، سارع رستم لنجدة كاووس، وحرك جواده نحو ميدان النزاع بعد أن أعدّ له الفرسان حصانه "رخش": صفّق رستم بكلتا يديه، وارتدى جلد، نمر ثم تمنطق بنطاقٍ ملكي مهيب[45].

بينما كان رستم متوجهاً نحو مكان الاشتباك، خرج فرسان إيران يرفعون الرايات أمامه، وما أن وقع نظره على "سهراب" حتى زمجر وأرعد، لكنه للوهلة الأولى لاحظ أن ملامح هذا الفارس تشبه ملامح "سام" إلى حد بعيد لا يمكن إنكاره، واقترح "رستم" على "سهراب" أن يتبارز

الاثنان بعيداً عن مكان اصطفاف الجيشين فوافق "سهراب" على ذلك، ووقف الفارسان، الابن وأبوه، أول مرة في مواجهة بعضهما البعض دون أن يعرف أحدهما الآخر، وبادر "سهراب" بالرجز وترديد عبارات التهديد والوعيد قاصداً إخافة خصمه وإضعاف روحه المعنوية؛ فقد خاطب "سهراب" والده "رستم" قائلاً: دعنا نبرح هذا المكان ونتنحى بعيداً عن جيشينا لامكان لك في هذا الميدان ولن تصمد أمام ضربة من ضربات قبضتي قدك طويل وملامحك قوية لكن عمرك الطويل، أنهك قواك[46].

إن رجز "سهراب" مشحون بالعبارات اللاّذعة، لكنه يتسم في جوانب منه بالليونة، والعطف، وهو في الواقع يعكس إحساساً مبهماً من الارتياح إزاء والده "رستم"، ويتسم هذا الارتياح أكثر ما يتسم في البيت الأخير من الأبيات المذكورة أعلاه.

نظر "رستم" بدوره إلى خصمه "سهراب" فوجده فارساً قوياً ذا هامة عالية، وأكتاف متينة وقوية، وقبضة حديدية، وركاب طويل، فخاطبه بشكل لا شعوري بليونة ورفق وقال له:

أيها الفتى لا تسرف في الرجز ولا تغلظ في القول في حديثك، واخلع على الميدان دفئاً ونعومة بكلماتك الوديّة الليّنة[47].

راح "رستم" يردد عبارات الرجز والتهديد أيضاً، وتحدث عن بطولاته في الحروب، ولكن وميضاً من الحب والشفقة يلوح بين سحب التهديد والوعيد كنتاج لتآلف روحي مبهم يفرض نفسه على لغة التخاطب بين الفارسين. لَقَدْ شَهدتْ لي البحارُ والجبال بما فعلتُ محاربي الطورانيين وتشهد النجوم بعظمة أفعالي وروّضتُ العالم برجولتي إن قلبي يشفق عليك، ولستُ راغباً أن أسلبك روحك وحياتك قوتك وصلابتك تميزك عن الأتراك ولم أشاهد شبيهاً لك بين الإيرانيين[48].

خلق هذا التآلف الروحي الذي ساد الموقف انطباعاً لدى "سهراب" بأن خصمه لا بد أن يكون والده "رستم": عندما صدر هذا الحديث من جانب رستم مال قلب سهراب نحوه قال له إني سائلك فاصدقني، اذكر لي سلالتك واحداً واحداً، وادخل السرور إلى قلبي بكلامك الجميل، إني أظنك رستم، وأحسبك من سلالة سام بن نيرم[49].

إن الخطاب المتبادل بين "رستم" و"سهراب" يشي بأن الفارسين قد عرفا بعضهما بعضاً من خلال إحساس غريزي لا يخدع، لكنهما لا يستطيعان الجنوح إلى الصلح لأن مصيرهما وقدرهما جعل منهما خصمين لدودين، وهما لا يستطيعان الإفلات من هذا المصير والقدر المحتوم، ولولا ذلك لكانت كلمة واحدة من أحدهما كافية لتعريفهما ببعضهما بعضاً، ولتغير مسار هذه المأساة المروعة، ولعانق "سهراب" أباه "رستم"، لكن تعنت "رستم" وعدم إفصاحه عن هويته أبقى حالة الخصام والعداء على حالها.

قال: أنا لست رستماً ولستُ من سلالة سام بن نيرم، فأنا محارب صغير، وسام فارس عملاق، وكان صاحب عرش وتاج وبلاط، فاستحوذ اليأسُ على سهراب واسودت الدنيا في عينيه[50].

بقي الإبهام سيد الموقف، ولم يفصح أي من الفارسين عن هويته، ولم يكن هنالك بدّ من الصدام، فالتحم الطرفان في قتال شديد بالسيوف والرماح والسهام، ولم يتمكن أحدهما من حسم المبارزة لصالحه، ويعتقد الفردوسي أن الطمع هو الذي يعمي البصر والبصيرة، ويؤدي إلى اقتتال الابن مع أبيه، ويعجب الشاعر من صنيع الدهر وصروفه بقوله: يا لك من دهر تفعل الأعاجيب تفتق من جهة وترتق من جهة أخرى، ألم تتحرك عاطفة أحد الفارسين بَعُد العقل فلماذا غاب الحنان؟ إن الأنعام تعرف صغارها بالفطرة كما تعرف الأسماك مواليدها في البحار[51].

استراح الفارسان برهة من الزمن، ثم عاودا القتال بالتراشق بالسهام، وحالت الدروع التي ارتداها كل منهما دون إصابة أحدهما بأذى، ثم اشتبكا معاً بالأيدي في نزال شديد، وحاول رستم أن يطرح سهراب أرضاً ليُجهز عليه، لكن قوته لم تسعفه ولم يستطع زحزحته من مكانه، ونال التعب والإرهاق من الفارسين، فاستراحا لمدة قصيرة،ثم عاودا القتال بضراوة أكثر من ذي قبل، فوجّه سهراب ضربة قرص محكمة لكتف "رستم"، تلَوّى على أثرها من شدة الألم، فسخر منه "سهراب" قائلاً: ضحك سهراب وقال أيها الفارس المغوار لا تبدو متماسكاً أمام ضربات الشجعان جوادك "رخش" يبدو كالأتان والوهن شق طريقه إلى قبضتيك[52].

أثّرت هذه العبارات الجارحة في مشاعر "رستم"، وأصبح أكثر تصميماً على مواصلة القتال، ثم هجم "سهراب" على جيش إيران، ولم يستطع "طوس" التصدي له وفرّ أمامه،لكن "رستم" خشي على الملك "كيكاووس" من "سهراب"، وطلب من خصمه إيقاف المبارزة حتى الصباح بسبب هبوط الظلام.

قضى "رستم" ليلته بالحديث عن كيفية حربه مع "سهراب" ذلك الفتى المعجزة الذي لم يرَ مثيلاً له في حياته، وبدا في كلامه يائساً مضطرباً إلى حد كبير: سوف نستأنف القتال غداً وسوف يُصارع كلٌ منّا الآخر سوف أعمل ما في وسعي ولا أدري من سيفوز وغداً تتجلى إرادة الله[53].

ولم تسفر جولة اليوم التالي عن نتيجة، لكن رستم راح يضعف أمام خصمه، وأفصح في حديث له مع أخيه "زواره": أنه يواجه فارساً لا قبل له به، وقد ينال منه في هذه الحرب الضروس: إن فزتُ في هذه المبارزة فلن أتريث في ميدان القتال، وإن شاءت الأقدار وقُتلتُ فلا تبك عليّ، ولا تجزع، وسارعوا بالذهاب إلى زابلستان إلى حيث يقيم والدي دستان وواسي والدتي واشدد من أزرها فذاك ما قدّره لي الإله لا أحد مخلد في هذه الدنيا وإخال أنني فقدت موجبات البقاء فكلنا للموت شباباً وشيباً، ولم يُكتب الخلود لأحدٍ في الكون، وقضى رستم نصف ليلته يتحدث عن سهراب، وآوى إلى فراشه في النصف الآخر[54].

في صباح اليوم التالي، ارتدى "رستم" بزة القتال وتوجه نحو ميدان النزال، بينما كان "سهراب" يحتسي الخمرة مع قادة الجيش الطوراني، فرحاً مستبشراً، كان "رستم" قلقاً ومتوجساً، لكن ثمة أمراً يؤرق "سهراب" ويسبب له معاناة داخلية، فالأوصاف التي ذكرتها والدته "تهمينه" حول أبيه "رستم" تشبه خصمه إلى حد بعيد، كما أن ميلاً داخلياً يتفاعل في أعماق "سهراب" نحو هذا الخصم الذي لا بد أن يكون أباه: قال سهراب لهومان، هذا الرجل الشجاع الذي يبارزني في ميدان القتال بأسه وشموخه لا يقل عن بأسي وشموخي، ولا يبدو عليه الضجر في النزال عندما يمتطي صهوة جواده يثير حبي وشجوني، ويعتريني أمامه إحساس بالمهابة والخجل، وتتحقق فيه كل ما ذكرتْ والدتي من أوصاف رستم، ويغلي قلبي بالأحاسيس عندما أراه يخامرني ظن بأنه رستم الهمام الذي ليس له قرين بين المحاربين، لا ينبغي لي أن أُقاتل والدي وأنا أنازله وجهاً لوجه في ساحة النزال[55].

سبق السيف العذل:

عززت أسباب عدّة ظنون "سهراب" بأن هذا الخصم الذي يبارزه لا يمكن أن يكون سوى أبيه "رستم"، لكن "رستم" لم يفصح عن ذاته وترك ابنه "سهراب" فريسة للظنون، كما أن "هومان" الطوراني – حسب خطة "أفراسياب"- يؤدي دوراً بارزاً في تضليل "سهراب"، بقوله له أنه واجه "رستم"، في حروب كثيرة، ويعرفه حق المعرفة، ونفى أن يكون هذا الفارس الذي يقاتله "سهراب" هو "رستم"، عندئذٍ لم يكن أمام "سهراب" الحائر إلا أن يمضي قدماً في منازلة خصمه، لكن إحساسه الفطري لا يخدعه، وهناك شيء يشده إلى هذا الرجل العجوز مما دفعه إلى ملاطفة حريفه بقوله: "إن قلبي يحن إليك، وأخجل من منازلتك، هلمّ أيها الفارس وأفصح عن نسبك وبح لي باسمك، فطالما أنك خصمي وندّي، فإن قواعد الحرب تقضي بأن تبوح بهويتك لندّك، غير أنني أظن أنك "رستم بن دستان بن سام الكابلي"، كما اقترح "سهراب" على "رستم" أن ينصرفا عن القتال ويشربا نخب بعضهما بعضاً، ويتعاهدا على أن لا يعودا للمبارزة بعد الآن، لكن "رستم" لم يلتفت إلى كل هذا الإطراء والتداني، وضمن إصراره على موقفه المتصلب قال لِ "سهراب": أيّها الفارس الباحث عن الشهرة لم نكن قد اتفقنا على ما تقول بل اتفقنا ليلة أمسِ على القتال صباحاً فلا تقل هذا، لأن خداعك لن ينطلي عليّ فلا يغرنّك شبابك فأنا لست غرّاً وقد هيأت نفسي استعداداً للنزال فليسع كل واحد منا قدر طاقته وعاقبة الأمور من تقدير السماء[56].

إن تصلّب "رستم" في موقفه أزّم فضاء القصة وسار بالأمور نحو نقطة اللاّعودة، ووجد "سهراب" نفسه مضطرّاً لمنازلة "رستم"، إلاّ أنه تمنى أن لا يُقْتل في هذه المواجهة، وأن يعيش حتى يموت ميتة طبيعية، واشتبك الفارسان بالأيدي، وكان كل طرف يحاول طرح الطرف الآخر أرضاً، فأمسك "سهراب" بوسط "رستم" ورفعه إلى أعلى ثم ألقاه على الأرض، وجلس فوق

صدره وأراد أن يفصل رأسه عن بدنه، لكن "رستم" لجأ إلى الخداع قائلاً لِـ "سهراب" أيُها الفتى في تقاليد القتال لدينا، لا يصرع الخصم خصمه من المرة الأولى، بل يمنحه فرصة أخرى، فإن غلبه في المرة الثانية أجهز عليه فوراً: فإن صرعه أرضاً في المرة الثانية فهو أسد قوي البأس شجاع لا ضير من الفتك به وقطع رأسه لأن تقاليدنا تقوم على هذه القاعدة[57].

أذعن "سهراب" لطلب الفارس العجوز الذي لا يتمنى له الموت، ونهض عن صدره وأخلى سبيله حتى جولة قادمة، وهو لا يعلم أنه على موعدٍ مع قدر مرعب ومخيف، ولأن عقله الباطن يلح عليه أن لا يخوض هذه المعركة؛ فقد ترك الميدان وانهمك بصيد الغزلان، إلى أن لحق به "هومان الطوراني" ولامه على ترك "رستم ينجو من موت محقق، ويرجح الفردوسي تراجع "سهراب" عن قتل "رستم" –عندما تغلب عليه- إلى عدة أسباب أولها شجاعة "سهراب" وثقته بأنه فائز على خصمه في جولة قادمة، وثانيها قدر "سهراب" الذي نقش على صفحة جبينه، وثالثها شهامة "سهراب" التي أبت إلا أن تلبي رغبة ذلك الفارس العجوز: عفا عنه أولاً لشجاعته وثانياً بفعل القدر وثالثاً لشهامته دون أدنى شك[58].

مشاعر الحب والحنان التي تنبض في قلب "سهراب" نحو "رستم" حملته على التريث في قتله والانصياع لطلبه، لكن "هومان" الذي يريد لمخطط "أفراسياب" أن يُنفّذ ويتم التخلص من "رستم"، راح يلوم "سهراب" الذي انهمك في صيد الغزلان، بينما تخلى عن صيد ثمين كـ "رستم" وبعد أن أفلت "رستم" من قبضة "سهراب" توجه نحو جدول ماء، فشرب واغتسل ثم راح يتضرع للخالق بأن يمنّ عليه بالنصر على خصمه: تضرع للخالق طالباً النصر والمنعة ولم يكن مطلعاً على تصاريف الأفلاك كما لم يكن مطلعاً على ما يخبئ له القدر الذي ينتزع التاج عن رأسه[59].

النهاية المفجعة:

كان "رستم" إبّان ريعان شبابه قوياً، وضخم الحجم، وكان من الصعب عليه أن يتحرك من مكان إلى آخر، فطلب من الإله أن ينقص من قوته، فاستجاب له الخالق وسلبه جزءاً من قوته وكبر حجمه، وعندما هزم أمام "سهراب" طلب من الإله ثانية أن يعيده إلى سابق عهده قوياً، وضخم الجسم، فكان له ما أراد، ثم التقى الفارسان في الميدان واحتدم النزال بينهما: بدأ الفارسان يتصارعان وأمسك كل منهما بوسط الآخر، فصار سهراب بتلك الأعضاد القوية والمرافق الشديدة كأن القضاء قد قيّده، حزن رستم عندما أحكم قبضته وأمسك بعنق ذلك الفارس ورأسه ثم ضغط على ظهره حتى تقوس فخارت قواه وانتهى أجله فألقاه رستم على الأرض وجلس عليه، وخشية أن ينهض بسرعة، استل سيفه من غمده وشق صدر ابنه النابض بالحياة[60].

تأوه الشاب، وغرق في دمائه، فقد أجهز "رستم" عليه بسرعة خوفاً من أن ينهض من جديد، كان "رستم" قد قال إن الفارس عندهم لا يجهز على خصمه من الوهلة الأولى، واستطاع بهذه الحيلة أن ينجو من براثن "سهراب" إلاّ أنه لم يمنح هذه الفرصة لخصمه الذي كان قدره أن يموت على يد والده. فها هو "سهراب" الغارق في دمائه يئن من شدة الألم، ويقول لقاتله قبل أن يعرف أنه والده: لا ذنب لك في مصرعي فإن الأفلاك هي التي قتلتني والدهر هو الذي أرداني ولم يرحم صباي وشبابي[61].

اقتربت مأساة "رستم" و"سهراب" عند هذه النقطة من نهايتها بسرعة، وأصبحت الأحداث تموج بالحركة والإثارة، فها هو "سهراب" يحتضر ويقول لـ "رستم" في أصعب لحظات الاحتضار: "لقد زودتني أمي بأوصاف والدي الذي فاضت روحي شوقاً إليه، إنني أبحث عن أبي، وخسرت حياتي في سبيل الوصول إليه، واحسرتاه لقد كانت معاناتي بدون حدود، وها أنا أرحل عن هذه الدنيا دون أن أرى وجه والدي، تيقّنْ أيها الفارس أنك لو تواريت في أعماق البحر أو صعدت إلى أعالي السماء، فإن أبي سيقتلك ثأراً لي[62] وتابع "سهراب" حديثه على مسامع والده "رستم": لا بد أن فارساً من كبار الفرسان سيخبر رستم بالحقيقة بأن سهراب قد سجّي قتيلاً وليأخذن بثأري منك إذا بلغه مصرعي هذا [63].

عندما سمع رستم هذا الكلام، أيقن أن المحذور قد وقع، وأنه أردى ابنه "سهراب" قتيلاً، وكان وقع هذه المصيبة عليه شديداً إلى الحد الذي فقد فيه وعيه، لأن حبكة الخيوط المعقدة لتلك المأساة قد حُلّت دفعة واحدة، وفي تلك اللحظات المأساوية أدرك "رستم" سرّ كل ذلك التحبب والتودد الذي كان يبديه خصمه نحوه، فلقد كان مَنْ ظنه عدواً طورانياً لدوداً، ابنه "سهراب" الذي يشبهه من جهات كثيرة، وبعد أن استعاد رستم وعيه خاطب ابنه "سهراب" قائلاً: ألديك علامة من رستم محق الله اسمه من بين الفرسان؟ أنا رستم لا أبقى الله لي اسماً وأجلَسَ في مأتمي دستان بن سام وصاح رستم جزعاً وغلى الدم في عروقه وراح يصرخ وهو يقتلع شعر رأسه[64].

أما "سهراب" المضرج بدمائه فأيقن أن أحاسيسه ومشاعره التي كانت تشده إلى "رستم" لم تكن تخدعه؛ فها هي خيوط المأساة قد اكتملت وقُتل على يد والده "رستم" الذي لم يرحم شبابه، وكان بإمكان "سهراب" أن يقتله، لكنه لم يفعل، لأن إحساسه الصادق كان يمنعه، وفي هذه اللحظات المفجعة، وأمام مصيبة أب ينتحب كان قدره أن يَقْتُل فلذة كبده، خاطب "سهراب" والده "رستم" معاتباً إياه على فعلته وعلى كل ما بدر منه من صد وعناد: قال له سهراب، بما أنك رستم لماذا قتلتني بعنادك وتهورك لم أدخر جهداً في تعريفك بشخصي ولكنك لم تبد تجاهي ذرة عطف وحب[65].

وتابع سهراب قائلاً: "افتح درعي، وانظر إلى بدني، وشاهد الخرزة المعلقة في ساعدي التي أعطيتها لأمي لتكون ذكرى منك لولدك، أعلم أن الأمل قد ضاع، ولكنني أحب أن تتيقن في اللحظات الأخيرة بأنني ابنك سهراب، فسارع "رستم" وأزال درع "سهراب" عن بدنه وشاهد العلامة التي كان قد أعطاها لزوجته "تهمينه" مشدودة على عضد "سهراب": عندما أزال الدرع وشاهد الخرزة ذاب حزناً ومزّق كل ثيابه وكان يردّد: أيها الفارس القتيل، أيها الشجاع الكريم السجايا في كل محفل وكان يذرف الدمع ويلطم الرأس ففاض رأسه تراباً ووجهه دمعاً[66].

عندئذٍ طلب "سهراب" من أبيه أن يتوقف عن البكاء والعويل، وأن لا يلحق الأذى بنفسه لأن ما حصل هو تقدير إلهي، وواقع لا محالة منه والبكاء والحزن لن يجديا نفعاً.

أُخبر أفراسياب في هذه الأثناء أن رستم قد قتل، فأرسل الأعين لتحري الأمر، فوجدوا أنّ القتيل "سهراب"، وطلب في آخر لحظات عمره من "رستم" أن يسمح للجيش الطوراني الذي كان يقوده بالانسحاب دون أن يلحق به أذى، وبدأ جيش طوران انسحابه بعد أن أمّن له "زواره" شقيق "رستم" انسحاباً آمناً، أما "رستم" فقد استشاط غضباً على "هجير" لأنه لم يُعرّف "سهراب" عليه، وهمّ بقتله لولا تدخل بعض الفرسان الإيرانيين، عندئذٍ حاول "رستم" الانتحار لكن الفارس "جودرز" تدخل في الوقت المناسب وحال دونه ودون الانتحار وهكذا تتسارع أحداث القصة بشكل لافت، وتصل المأساة إلى نهايتها وتضع السامع والقارئ تحت تأثر شديد.

سعى "رستم" إلى إنقاذ حياة ابنه "سهراب" جاهداً فأرسل الفارس "كودرز" إلى سرادق الملك "كيكاووس" كي يحضر المادة المضادة للسم "ترياق الموت" التي كانت في حيازة الملك، لكن "كيكاووس" امتنع عن إعطائه إياها وقال بصراحة إنّ "رستم" وابنه "سهراب" يشكلان تهديداً خطيراً على حياة الملك، واشار إلى عربدات "رستم" وغلظته، وقال: لقد ذكرني بسوء وشتمني مرات ومرات وأراق ماء وجهي أمام العساكر فإن بقي ابنه على قيد الحياة فلن أجني إلا العبث والبوار[67].

كما أشار "كيكاووس" إلى تحدي "سهراب" له، وقال: إن مصلحتنا تقتضي موته، ولا أحد يقبل بأن يرعى عدّوه: إن بقي حياً في هذا العالم فسوف يخشاه الكبار والصغار الذي يرعى عدوّه حتى يترعرع لا يترك في الكون إلاّ الذكر السيء[68].

عاد "جودرز" خالي الوفاض، ولم يحضر معه سوى اليأس، فقرّر "رستم" أن يذهب مع "سهراب" إلى "كيكاووس" حيث الترياق الذي يقهر الموت، لكن لم يعد للترياق ضرورة، فقد لفظ "سهراب" أنفاسه الأخيرة أمام عيني والده "رستم"، فقال قولته المشهورة: سبق السيف العذل، ووصلت المأساة إلى أوجها ونهايتها بموت "سهراب" المفجع، وأجهش رستم بالبكاء والعويل، وحثا التراث على رأسه، وعدّد بطولات ولده ومناقبه ثم لف جسده بالديباج، وسجّاه في تابوت

في طريقه إلى زابلستان بعد أن أحرق كل خيام القادة، وأمراء الجيش، لكنه كان يبكي ويذكر فلذة كبده الذي أطفأ شعلة حياته بيده: لن ير العالم فارساً مثلك بعد الآن من حيث الرجولة والفروسية في القتال وآسفاه على تلك الرجولة والرأي السديد وآسفاه على ذلك الشموخ والكمال كان يذرف الدمع دماً ويحثو على رأسه التراب وقد مزّق بزته الملوكية من شدة الانفعال[69].

وصل ركب الجنازة إلى سرادق كاووس، فراح يواسي "رستم" كذباً ورياءً بقوله: إن المنية استدرجته مع جيشه حتى يلقى حتفه على يديك ماذا بوسعنا أن نعمل وما العلاج؟ وإلى متى تبكى على هذا الفقيد؟ عمق مصيبتك ملأ قلبي حزناً وألماً، ولا أريد أن أذكر الفقيد بسوء[70].

انتهى غزو "سهراب" لإيران بمقتله على يد والده، فعاد كيكاووس إلى إيران، وعاد الطورانيون إلى طوران، لكن "رستم" وجيشه توجهوا إلى مسقط رأسه زابلستان، وكان نعش "سهراب" محمولاً على عربة تسير خلف الجيش، وكان "دستان" والد "رستم" وكبار زابلستان في استقبال النعش، وتوشحت زابلستان بالسواد وارتفع العويل والبكاء إلى عنان السماء.

في نهاية المطاف كُفّن "سهراب" بالديباج الأصفر ودفن في قبر على شكل حذوة جواد، وكان حجم المأساة كبيراً لدرجة وصلت معها أخبارها إلى سائر أرجاء المعمورة، وقد حزن كل من سمع بهذه المصيبة، ولا سيما ذوي القلوب والمشاعر الشفافة، ثم وصلت أخبار مقتل "سهراب" إلى مدينة "سمنجان" حيث تقيم والدته "تهمينه" ولدى سماعها الخبر بكت بمرارة، وراحت تقبل عرش "سهراب" وتاجه تارة ورأس جواده تارة أخرى: اصطبغت دموعها بلون الدم الأحمر وهي تعانق تاج سهراب وكانت تبكي بمرارة على تاج سهراب وعرشه كما كانت تنادي شجرة الملك التي بُترت، وقد أمسكت برأس جواده، فتعجب منها كل من رآها، وكانت تقبله على رأسه ووجهه، فسالت دموعها الدامية تحت حوافره[71].

إن من يقرأ هذه القصة المؤلمة والمعبرة لا بدّ أن يضم صوته إلى صوت الفردوسي إذ يقول: لا أحد يستطيع حل لغز الكون، فهو باب مغلق، وسوف تتلف عمرك لو حاولت فتحه، ولكن كل ما حدث قضاءً وقدراً، فهو مقدر من ربّ الكون والعباد، فلا تتعلق بهذه الدنيا المستعارة؛ لأن كل ما هو عارية لا يفيد شيئاً[72].

و قد صاغ العلامة عبد الوهّاب العزام هذا المعنى شعراً بقوله:

هو الباب لم يفتحه أحد فلا تُضع العمر في ذا الكبَد
ولكنّ حكم القضاء مضى بذلك ربّ القضاء قضى
فلا يعلق القلبُ دار الزوال فإن التمتع فيها محال

(ترجمة البنداري للشاهنامه، ص 150)

جدلية الجبر والاختيار

إنّ الأدب يربطنا بالحياة من منطلقات عاطفية عندما نقرأه من جهة، كما يربطنا بالحياة أيضاً من منطلقات عقلية عندما نحلله وننقده من جهة أخرى[73]، وبشكل عام، فإنّ هذه التراجيديا شاهد بارز وواضح على عجز الإنسان في مواجهة القدر والمصير، كما تبيّن جهل الإنسان وعدم إدراكه لرموز الوجود وأسراره، فالإنسان في هذا الكون مختار في أمور، ومجبور في أمور أخرى، فشؤون الحياة مثل السعادة والشقاء، والحياة والموت، كلها تدور في دائرة الجبر، وفي قصة "رستم" و"سهراب" التي تبين نمطاً من أنماط تفاعل أفراد البشر مع بعضهم بعضاً، تدور الأحداث ضمن هذا الإطار، يعني إطار الجبر والاختيار، إذ إنّ "سهراب" انطلاقاً مما لديه من اختيار، أراد توظيف تفوقه الجسماني الذي حباه الله به لتغيير النظام السياسي السائد الذي كان قائماً آنذاك بقطبيه الكبيرين: إيران وطوران، وإقامة نظام سياسي جديد على أنقاض القديم، وسعى ضمن هذا التوجه إلى مهاجمة إيران وهزيمة الملك "كيكاووس"، وتنصيب والده "رستم" ملكاً على إيران، وخطّط لمهاجمة طوران والقضاء على "أفراسياب" وضم مملكته لمملكة إيران، مما يعني تغيير النظام العالمي الثنائي القطب الذي كان سائداً في ذلك العصر إلى نظام أحادي القطب يحكمه "رستم"، لكن القدر أراد غير ذلك وباءت كل مخططات "سهراب" بالفشل ودفع حياته ثمناً لطموحاته، لأن قدره أن يموت على يد أبيه "رستم" ولولا ذلك الجبر، لاستطاع "سهراب" – بما لديه من أوصاف "رستم"- أن يعرف والده، ولما رفض "كيكاووس" إعطاء ترياق الموت لِـ "سهراب"، ولما امتنع "هجير" عن الإفصاح عن هوية "رستم" لِـ "سهراب" الذي كان متلهفاً للتعرف على أبيه، لذلك فإن حل هذه الألغاز لن يؤدي إلى حل لغز القصة ما لم نأخذ لغز القدر والمصير بعين الاعتبار.

تضافرت في هذه القصة جهود جميع صانعي الأحداث والوقائع سواء أكانوا إيرانيين أم طورانيين، عن قصد أو عن غير قصد لحبك خيوط هذه المأساة؛ إذ إن امتناع "هجير"، أسير "سهراب"، عن التعريف بِـ "رستم" كان بهدف الحفاظ على حياته، أما "هومان" فقد امتنع عن التعريف به عن سوء نية حتى يُقتل على يد "سهراب" و"زنده رزم "خال "سهراب" الذي يعرف "رستم" جيداً وكان ينوي تعريف "سهراب" على والده لقي مصرعه على يد "رستم" نفسه، كما أن امتناع "كيكاووس" عن إعطاء ترياق الموت لِـ "سهراب" كان بدافع الحقد على رستم وخوفاً من "سهراب"، ويبدو أن الإيرانيين والطورانيين اتفقوا أول مرة،عن غير علم على أمر هو قتل "سهراب"[74] الذي امتاز – على الرغم من طيشه وتهوره- بطيبة قلبه، وصدق مشاعره، وعفوه عن الآخرين، فلم يعاقب "هجير" مع أنه يعلم حق العلم عدم صدقه، ولم يقتل "رستم" عندما صرعه أرضاً، بل أطلق سراحه ومنحه فرصة أخرى، في حين أجهز "رستم" عليه عندما صرعه

أرضاً أول مرة، فربما اقتضى مصيره المشؤوم أن يكون بهذه البساطة والسذاجة، وإن لم يكن كذلك، فكيف يدع خصمه العنيد "رستم" يفلت من قبضته؟

في الجانب الآخر، نرى "رستم" فارساً لا يُشق له غبار، إذ كان على الدوام معتمداً على قوة سواعده، لكنه في هذه المواجهة يخرج عن جادة الشهامة والرجولة، وأخلاق الفروسية، فقد استطاع من خلال خداعه لِـ "سهراب" أن يفلت من موتٍ محقق، ومع أن "سهراب" عفا عنه عندما أطاح به أرضاً، إلا أنه لم يمهل "سهراب" لحظة واحدة وأغمد سيفه في صدره وأرداه قتيلاً.

شهدت الشاهنامه – على اعتبار أنها شعر ملحمي- مقتل محاربين كثر لا حصر لهم، لكن المصرع المحزن والمؤلم لبعض أولئك المحاربين يهز المشاعر بعنف، ويخلق لدى المخاطب إحساساً عميقاً بالأسى واللوعة، و"سهراب" أحد هؤلاء القتلى والآخر "اسفنديار"؛ لأن شعلة حياة هذين الفارسين المشهورين أُطفئت على يد "رستم"، فهما يقتلان في عنفوان شبابهما ويتركان في قلوبنا ألماً وحسرة، لأن العناء الأعمق والأكثر إيلاماً في حياة البشر هو موت الأحبة والأعزاء والأخيار[75]، وتراجيديا "رستم" و"سهراب" التي جرت فصولها في الماضي السحيق ما زالت مدار بحث بين الأدباء والنقاد والمعنيين بالأدب الفارسي ماضياً وحاضراً، فها هو "يوكن برتلس" صاحب كتاب "فردوسي وأشعاره" يقول: "إن قصة المواجهة المفجعة بين "رستم" وولده الشاب "سهراب" ذات تأثير محزن، وينبع مصدر الحزن في هذه المواجهة من أن كل واحد منهما كان يبحث عن الآخر لما بينهما من علاقة الأبوة والبنوة، لكن "سهراب" يسقط في فخ الموت في هذه المواجهة، وفي إطار هذا النزاع، فإن ذنب الأب "رستم" الذي توسل بحيلة غير لائقة لقتل ولده "سهراب" ذنب لا يغتفر، كما أن رستم عمد إلى الحيلة والخديعة في القتال مع "اسفنديار"؛ فهو يلجأ إلى مثل هذه الخدع لأنه لا يحتمل الهزيمة ولا يقبل بها، ولا يستطيع أن يرى نفسه مهزوماً وذليلاً"[76].

الفروسية والخديعة:

إن الخديعة التي لجأ إليها "رستم" واستطاع بواسطتها أن ينجو من قبضة "سهراب" قد طغت في أهميتها على سائر أجزاء القصة الأخرى، وربّ سائل يسأل: لماذا يحرك هذا الجزء من القصة أحاسيسنا ومشاعرنا؟ والجواب عن هذا السؤال يكمن في أن "رستم" يُعدُ فارس إيران الذي لا يقهر ولا يشق له غبار، وهو رمز الرجولة والقوة، والصبر والتحمل والتضحية في سبيل إيران، وقد كان يحقق النصر في كل حروبه بجدارة ورجولة منقطعة النظير؛ بيد أنه عندما واجه شاباً فارساً في ميدان القتال هُزم أمام عنفوان ذلك الفارس، ونجا من الموت إثر توسله بتلك الحيلة التي ادعى فيها أن قواعد الفروسية لدى الإيرانيين تقضي بأن لا يصرع الخصم خصمه من

المرة الأولى بَلْ تفرض عليه أن يعطيه فرصة أخرى، وتوسله بهذه الحيلة يثير العواطف والمشاعر ضده، وعندما يلمس القارئ مدى القسوة التي اتبعها "رستم" مع "سهراب" عندما قتله بمجرد أن طرحه أرضاً لأول مرة يزداد حنقاً وغضباً على فعلته التي تناقض ادعاءه بشأن قواعد الفروسية، وعلى الرغم أن "رستم" لجأ إلى الحيلة في حروبه الكثيرة، ولكن أياً من تلك الحيل لم تظهر "رستم عاجزاً وذليلاً إلى تلك الدرجة التي ظهر فيها في قتاله مع "سهراب"، ومن ضمن تلك الحيل التي لجأ إليها "رستم" حيلته مع الشيطان "أكوان"، وذهابه بلباس تاجر إلى بلاد طوران لإنقاذ "بيجن"، وحيلته مقابل "اسفنديار" و"سهراب"، لكن خديعته لِـ "سهراب" في واقع الأمر هي خديعة كارثية للذات، لذلك نرى هذا الفارس المغوار (أي رستم) قد قضى نحبه نتيجة حيلة موجود ذليل مثل "شغاد"[77]. وقد تكون نهاية "رستم" هي عقاب رباني له على ما اقترفه بحق الآخرين وعلى رأسهم "اسفنديار" و"سهراب"، ويعتقد المستشرق الألماني "نولدكه" أن لدى "رستم" بعض النزعات الشيطانية لأن جذور نسب والدته يرجع إلى "الضحاك"[78]: لا شك أن "سهراب" يعد شاباً غرّاً ومتهوراً ولديه طموحات وآمال عريضة لا تتناسب مع سنه من جهة، ومع طبيعة عصره والقوى المحيطة به من جهة أخرى، فحينما سمع من والدته أن أباه "رستم" صاحب البطولات العظيمة، فارس لا نظير له، استشعر الفخر بأبيه، وعقد العزم على أن يجعل منه ملكاً على إيران وطوران دون أن يكون لديه أدنى معرفة بوالده "رستم" الذي كان يفضل الفروسية على المُلك، فخطأ "سهراب" الأكبر كان يكمن في تطاوله على نظام لا يعرف أسراره جيداً؛ بينما كان "رستم" فارساً مخلصاً لقواعد الفروسية ولحقوقها وآدابها، ولم يكن لديه أدنى استعداد للخروج على تلك القواعد والطقوس التي تنصّب الملوك وتحمي مُلكهم[79].

وقد عدّ بعض الباحثين والنقاد أن قتل "رستم" لولده "سهراب" له ما يسوّغه، وأن ذوي القلوب الضعيفة والعواطف الرقيقة هم الذين يلومون "رستم"، لأن حكمهم على الأمور لا يقوم على المنطق، بل على مشاعرهم وأحاسيسهم الرقيقة ولو وضعنا أنفسنا في مكانه وفي الظروف والأوضاع نفسها التي كانت سائدة في عصره لالتمسنا له العذر، لأن "سهراب" في لحظات المواجهة تلك كان يعد عدواً طورانياً مثل "هومان" و"بارمان" اللذان جاءا معه لغزو إيران، وتدميرها وإسقاط ملكها، وفي ذلك تعدٍ على جوهر الملك الذي يمثله "كيكاووس" وعلى جوهر الفروسية التي يمثلها رستم، ولذلك لا يتوقع أحد من "رستم"، بصفته ممثلاً لنظام الفروسية أن يتخلى عن مسؤوليته في الدفاع عن وطنه، كما أن "رستم" الذي لم يُغلب في حياته أمام أي عدو لن يرضى بالهزيمة أمام فتى نزقٍ من فتيان طوران، لأن الجيش الإيراني يعلق عليه الأمل في دحر أي خطر يهدد البلاد، على أي حال إن الروح عزيزة بحكم غريزة حب البقاء، و"رستم" بشر مثل الآخرين ولا يمكن استثناؤه من هذه القاعدة، وبناء على هذا فإنه لم يستسلم لخنجر "سهراب" ولجأ إلى الخديعة؛ لأن كل شيء جائز في الحب والحرب من جهة، ولأن في هزيمته أمام ذلك الفتى

الجسور من جهة أخرى هزيمة لنظام الفروسية ولرمز ذلك النظام يعني "رستم"، كما أن هزيمة "رستم" تعني هزيمة آمال وتطلعات السواد الأعظم من الإيرانيين؛ فهو الرمز الذي يتجسد فيه مصير أمة، وحياته أهم من حياة كل أعدائه؛ لأن موته يعني موت آمال عريضة كما يعني هزيمة الأكثرية أمام النخبة القليلة[80].

إن الصدام بين "رستم" و"سهراب" ليس صداماً بين أب وابن فحسب، وإنما صدام بين نهجين ومسلكين، وصدام بين الماضي والمستقبل، وبين المحافظة على التقاليد المرعية والخروج عليها، لكن رصيد "رستم" في هذا النزاع هو تجاربه وخبراته وحكمته، في حين كان "سهراب" مغروراً بشبابه وقوة سواعده، ولهذا كانت الغلبة في هذه المواجهة لحكمة الشيوخ التي قهرت غرور الشباب وحماسهم.

تراجيديا رستم وسهراب والأدب العالمي:

إن قصة رستم وسهراب التي اعتمد الفردوسي في نظمها على مصادر قصصية قديمة هي في حقيقة الأمر أقوى من أي أسلوب بيانيّ آخر، لا سيّما بعد أن ألبسها الفردوسي حلة الشعر[81]، كما أن شاهنامة الفردوسي بأسرها تُعدّ من روائع الشعر الفارسي والشعر العالمي، ولا نكاد نجد لها نظيراً في أدب العرب على الرغم من عظمة هذا الأدب وتفرعاته[82].

هناك قصص شبيهة بقصة رستم وسهراب في بعض الآداب العالمية، إذ إن أحداث هذه القصص تلخص مواجهات دامية بين آباء وأبناء تنتهي بمقتل أحدهما على الأغلب، لكن مستوى الإثارة والجاذبية التي تتمتع بها قصة رستم وسهراب لا تشاهد في أية قصة من القصص المشابهة في آداب الأُمم الأُخرى.

هناك قصة من قصص الأديب "سوفوكلس" تحت عنوان "الملك أديبوس" تبيّن آلام ومعاناة رجل يقتل والده، ويتزوج من والدته دون أن يعرفهما، وكان المنجمون قد تنبأوا له بما حصل، ولم يفلح حذره الشديد وتيقظه في تفادي تلك المأساة[83]، كما أن قصة "يفتاح" وهي من قصص العهد العتيق، تشبه قصة رستم وسهراب، فقد نذر "يفتاح" في هذه القصة، إذا ما انتصر في الحرب على العمونيين، أن يقدم أول شخص يواجهه قرباناً للآلهة وكانت مشيئة القدر أن تلاقيه ابنته[84]، وقصة "إيفى كنى" ابنة البطل اليوناني "أجاممنون" شبيهة بقصة "يفتاح" العبراني، وكلتا القصتان تبيّن ضعف الإنسان وعجزه مقابل وطأة القدر والمصير، كما أن منظومة "هيلدبراند"، وهي من الآثار الملحمية الألمانية، وقصة "كوهولين" وهي من الأساطير الإيرلندية تشبهان قصة رستم وسهراب[85].

كتب الباحث الإنجليزي "بوتر" كتاباً يشتمل على أكثر من ثمانين قصة ترجع إلى شعوب وقبائل مختلفة من جميع أنحاء العالم، حيث يقتتل في كل قصة من هذه القصص الأب مع الابن أو يقتتل في كل منها أشخاص تربطهما ببعضهما بعضاً قرابة دم، وقارن مؤلف هذا الكتاب تلك القصص مع بعضها من حيث اللمسات الفنية، والحبكات القصصية التي دفعت بالقصة إلى نقطة الأوج وقمة الإثارة، فوجد أن قصة رستم وسهراب هي الأكمل والأشمل، وانتخبها عنواناً لكتابه وسماه رستم وسهراب[86].

ومن الجدير بالذكر أن ضعف الإنسان وعجزه في مواجهة القدر والمصير، يظهر جلياً واضحاً في قصة رستم وسهراب، كما هو الحال في آداب الأمم الأخرى، لكن الإثارة والجاذبية التي تتمتع بها قصة الفردوسي لا يمكن مشاهدتها في أية قصة أخرى[87]، فلو قارنا الشاهنامه ومأساة رستم وسهراب مع غيرها من أدب المآسي والتراجيديا في الشعر الملحمي لسائر الأمم لوجدنا أن الشاهنامه بشكل عام ومأساة رستم وسهراب بشكل خاص تشتملان على عناصر وجوانب غير مسبوقة تدللان على عظمة هذا الأثر، كما تصوران القوة المرعبة للمصير والقدر بشكل بارز ومعبر وغير مسبوق، وعلى نحو لا يمكن مشاهدته في أدب ملحمي آخر، مما جعل معظم النقاد يجزمون بأن الشاهنامه تُعد من الروائع الأدبية العظيمة، لذلك عدّها الباحث والناقد الألماني المعروف "باوم كارتن" تعادل أدب المآسي والتراجيديا عند اليونان، وقد ترجمها الكثير من شعراء أوروبا وأدبائها إلى اللغات الأوروبية شعراً ونثراً[88].

وحظيت الشاهنامه بقسط وافر من عناية الباحثين العرب الذين قاموا بدراستها وترجمتها تارةً والحديث عن قصصها وأبطالها تارةً أخرى؛ نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: ترجمة البنداري التي حققها المرحوم عبد الوهاب عزّام وأفرد لها مقدمة قيّمة وقارنها بالأصول الفارسية[89]. كما أن هناك ترجمة حديثة للشاهنامه باللغة العربية تمت على يد سمير مالطي بعنوان: "الشاهنامه ملحمة الفرس الكبرى" [90]. ومن الدارسين العرب الذين التفتوا إلى الشاهنامه في أبحاثهم أمين عبد المجيد بدوي في كتابه:" القصة في الأدب الفارسي"[91] وفي كتابه:"جولة في الشاهنامه"[92]. وقام الباحث بديع محمد جمعة في كتابه:"من روائع الأدب الفارسي" بالتعريف بقصة رستم وسهراب وترجمة أبياتها إلى اللغة العربية دون تحليل معمّق. ومما لا شكّ فيه أن مئات الأبحاث والدراسات تناولت هذه القصة المأساة بلغات شتى، لكن قلّما نجد بحثاً أوفاها حقّها من التتبع الدقيق المصحوب بنذر يسير من التحليل كالذي ذهبت إليه هذه الدراسة.

النتيجة

لقد دأب الفردوسي في هذه القصة المأساة وقصص الشاهنامة ومآسيها الأخرى التأكيد بأن التصدي للقدر وما كتب على الجبين،ضرب من المحال، ولا بد للإنسان من الإذعان والتسليم؛ لأن مساعي الحذر والتدبير والاحتياط لن تفلح في مسح ما جفّ به القلم. فالمكتوب؛ مسألة جبرية ليس للاختيار وإرادة البشر إليها سبيلٌ، وهذا الأمر جليّ واضح في قصص التراجيديا الكثيرة التي حفلت بها الآداب العالمية، وضمن هذا الإطار، يمكن لنا أن نعدّ تراجيديا رستم وسهراب، قصة تمثل كل المجتمعات البشرية عبر العصور ومن ضمنها عصرنا الحاضر؛ فالبحث عن السلطة يضع الناس في مواجهة بعضهم بعضاً، ويجعلهم متعطشين للدماء، فالأبناء يفتكون بآبائهم، كما يفتك الآباء بأبنائهم، في سبيل الوصول إلى السلطة، وسيخسر رجالٌ كبار مثل "سهراب" حياتهم ثمناً للتكالب على السلطة في كل زمان ومكان، حاضراً ومستقبلاً. وما دام الأمر كذلك، وقبل أن ينشب القدر أظفاره ويفتك بنا، غير آبه بكل التمائم التي أحطنا أنفسنا بها، فلنسع في هذا الكون إلى مؤازرة الحق والعدل، ولنتحلّ بالشجاعة والشهامة والنُبل والسخاء، علّنا ننتصر على طلسم الرعب والخوف من المصير الذي يسكن في أعماقنا، ويُفسد علينا جانباً من لحظات عمرنا المحدود.

Sohrab and Rustum Tragedy: An Analytical Study

Aref AlZghoul, *Department of Arabic Language and Latreral,Yarmouk University, Irbid, Jordan.*

Abstract

This paper studies and analyses the story of Rustam and Sohrab which is the most famous and the strongest tragic story in the Persian poetic epic "Shahnameh" by AlFerdowsi in the late fourth century AH. In the story, the writer sheds light on the hopes and pains of the nation that dominated the globe for thousands of years. The study focuses on this story in that the young knight "Sohrab" was killed by his father, "Rustam" , without knowing each other. The writer focuses on the terrifying power of the acts of God- inevitable destiny- that people cannot escape with caution and deliberation. In addition, the study focuses on ALFerdowsi's literary genius side, not to mention the high status this story attained compared with similar ones in the world of literature as critics consider it one of the greatest stories of tragedy and the most exciting and powerful one.

Keywords: Shahnameh , AlFerdawsi, Rustam, Sohrab, Tragedy.

قدم البحث للنشر في 2012/3/26 وقبل في 2012/12/24

الهوامش

(1) من أمراء مدينة "طوس" وأعيانها في القرن الرابع الهجري، وقد كان حاكماً لتلك المدينة لمدة من الزمن ثم أصبح أميراً لخراسان. كان يزعم أنه ينحدر من سلالة ملوك إيران القدماء. أمر بجمع أخبار الإيرانيين القدماء وروراياتهم في كتابٍ منثور صار فيما بعد نواة لِـ "شاهنامة" الفردوسي المنظومة شعراً. مات أبو منصور محمد بن عبد الرزاق مقتولاً عام 350هـ.(لمزيد من الاطلاع، انظر: فردوسي، محمد أمين رياحي، ص53- 61. و: سرچ شمه هاي فردوسى شناسى، محمد أمين رياحي صص 171- 181).

(2) ذبيح الله صفا، حماسه سرايى در إيران، صص 99، 204.

(3) المصدر نفسه، ص182.

(4) إبراهيم مدرسي، شاهنامه وشكوه بهلواني، ص241.

(5) ذبيح الله صفا، حماسه سرايى در ايران، ص6.

(6) شاعر من شعراء القرن الثامن الهجري، ولد في بلدة "فريومذ" في خراسان ومات فيها عام 769هـ. كان والده شاعراً أيضاً وقد ضاع ديوان ابن يمين عام 743هـ لكن تمكن من جمع بعض أشعار ذلك الديوان ثانية.

(7) رحيمى عفيفي، مجموعة سخنرانى هاى سوّمين تا ششمين هفتة فردوسى، ص34.

(8) ابو الحسن نظام الدين يا نجم الدين احمد بن عمر بن علي السمرقندي، المعروف بـ "نظامي العروضي" من شعراء القرن السادس الهجري وكتابه، ومؤلف كتاب "چهار مقاله" يعنى كتاب "المقالات الأربع" في الشعر والأدب، والإنشاء، والطب، والفلك الذي ترجمه يحيى الخشّاب وعبد الوهاب عزّام إلى العربية. عاش معظم سني عمره في خراسان. ناصر السلطان علاء الغوري في حربه مع السطان سنجر السلجوقي، وقضى آخر حياته متخفياً في "هرات" خوفاً من السلطان سنجر بعد هزيمة علاء الغوري، وتاريخ وفاته غير معروف. (لمزيد من الإطلاع، انظر: كتاب "چهار مقاله" تحقيق محمد معين؛ و"تاريخ أدبيات "إيران" لِـ "ذبيح الله صفا" ج2، ص961.)

(9) عروضي سمرقندى، جهار مقاله، 75- 76، انظر أيضاً: محمدامين رياحى، سرچشمه هاى فردوسى شناسى، ص 290.

(10) فردوسى، شاهنامه، چاپ موسكو، الطبعة الاولى، نشر هرمس، طهران، 1382هـ. ش، (2003م)، ص745. انظر أيضاً: شاهنامة فردوسى، تصحيح مهدي قريب ومحمد بهبودى، المجلد الأول، الطبعة الأولى، نشر توس، طهران، 1375هـ. ش (1996م)، ص252، الأبيات، 864 و865.

(11) أشهر فرسان "الشاهنامه" في مرحلة الفروسية من مراحل الملحمة الفارسية، وهو ابن زال الذي اشتهر بالفروسية أيضاً، كان رستم يتمتع بقوى غير عادية حينما كان يقود جيوش ملوك إيران القدماء: كيقباد، و"كيكاووس"، و"كيخسرو". بارز الفارس "اسفنديار" وقتله، ثم نازل ابنه

"سهراب" وأجهز عليه دون علمه أنه ولده، لكنه في نهاية المطاف يلقى حتفه غدراً على يد أخيه غير الشقيق "شغاد". خصاله وصفاته تشبه خصال وصفات "أخيل" يا أشيل في الياذة هوميروس. (انظر: پژوهشهایی در شاهنامه" جهانگیر گوروجي، ص 128- 130.)

(12) اسم حصان "رستم" الذي كان يمتطي صهوته في الحروب، وهو حصان أسطوري واستثنائي تجتمع فيه ألوان عدّة. مات ذلك الحصان مع فارسه "رستم" نتيجة حيلة دنيئة حاكها "شغاد" أخو رستم غير الشقيق تمثلت باستدراج رستم ليقع مع جواده "رخش" في حفرة مليئة بالرماح.

(13) الشعب الذي كان يسكن في منطقة ما وراء النهر، ضمن منطقة واسعة تمتد حتى بحيرة الأورال وتخوم الصين. وكان نهر الجيحون يفصل بين إيران التاريخية وبلاد الطورانيين. وتشكل الحروب الدامية التي كانت تدور بين إيران والطورانيين الجزء الأكبر من الملحمة الفارسية "الشاهنامة". وذكرت المصادر الفارسية والمراجع العربية الإسلامية أن بلاد "الطورانيين" هي المناطق الواقعة ما وراء النهر.

(14) مدينة من توابع "بلخ" من أرض الطورانين، دخلها "رستم" باحثاً عن حصانه، فعشقته "تهمينة" ابنة ملك تلك المدينة، وتزوجها فكان "سهراب" ثمرة لهذا الزواج.

(15) صفة لِـ "سام" جد "رستم"

(16) فردوسى، شاهنامه، طبعة بروخيم، ج2، ص440. انظر أيضاً، أنواع أدبى، سيروس شمسيا، ص49؛ وباكاروان حُلّه، عبد الحسين زرّين كوب، مقالة "فرودسى، آفريرگار رستم"، ص35.

(17) جد "رستم" لأبيه.

(18) صورة أُخرى لإسم "نريمان" وصفة "سام" جد رستم.

(19) فردوسى، شاهنامه، ج2، ص441.

(20) لقب "زال" والد رستم.

(21) شاهنامه، ج2، ص442.

(22) بلاد الطورانيين؛ وهي المنطقة الواقعة وراء جيحون وسيحون.

(23) ثاني ملك من ملوك إيران في العهد الامبراطوي القديم. وقعت في عهده حروب طاحنة بين إيران وطوران، ومأساة سهراب تُنسب لسنوات ملكه.

(24) شاهنامه، ج2، ص443.

(25) المصدر نفسه، ج2، ص446.

(26) جعفر شعّار، وحسن أنورى، غمنامه رستم وسهراب، ص54.

(27) أحد فرسان الشاهنامه، وقد وقع في أسر سهراب، ورفض أن يدلّه على أبيه رستم.

(28) فارس من فرسان الشاهنامه، وهو الذي أطلع الملك كيكاووس على هجوم سهراب على إيران.

(29) أحد أبطال الشاهنامه، وهو "جيو" بن "جودرز" صهر "رستم" ووالد "بيجن" وقد أنقذ كيخسرو بن "سياوش" من أسر الطورانيين.

(30) شاهنامه، ج2، ص460.

(31) المصدر نفسه، ج2، ص462.

(32) المصدر نفسه، ج2، ص467.

(33) منصور فسائي، حماسه رستم وسهراب، ص56.

(34) خال "سهراب" الذي كان عليه أن يُعرِّف ويدل سهراب على والده رستم، لكنه يُقتل قبل أن يؤدي دوره المرسوم له.

(35) شاهنامه، ج2، ص475.

(36) المصدر نفسه، ج2، ص480.

(37) المصدر نفسه، ج2، ص480.

(38) المصدر نفسه، ج2، ص482.

(39) جعفر شُعار، وحسن أنوري، غمنامه رستم وسهراب، ص45.

(40) شاهنامه، ج2، ص482.

(41) المصدر نفسه، ج2، ص482.

(42) المصدر نفسه، ج2، ص482.

(43) المصدر نفسه، ج2، ص484.

(44) المصدر نفسه، ج2، ص485.

(45) المصدر نفسه، ج2، ص487.

(46) المصدر نفسه، ج2، ص488.

(47) المصدر نفسه، ج2، ص488.

(48) المصدر نفسه، ج2، ص488.

(49) المصدر نفسه، ج2، ص489.

(50) المصدر نفسه، ج2، ص489. يتكتم المحاربون في أدب التراجيديا عادة، ولا يفصحون عن هويّاتهم، انظر: أنواع أدبي، سيروس شميسا، ص83.

(51) المصدر نفسه، ج2، ص489.

(52) المصدر نفسه، ج2، ص490.

(53) المصدر نفسه، ج2، ص495.

(54) المصدر نفسه، ج2، ص496.

(55) المصدر نفسه، ج2، ص497.

(56) المصدر نفسه، ج2، ص498.

(57) المصدر نفسه، ج2، ص500.

(58) المصدر نفسه، ج2، ص500.

(59) المصدر نفسه، ج2، ص501.

(60) المصدر نفسه، ج2، ص502.

(61) المصدر نفسه، ج2، ص503.

(62) المصدر نفسه، ج2، ص503.

(63) المصدر نفسه، ج2، ص503.

(64) المصدر نفسه، ج2، ص503.

(65) المصدر نفسه، ج2، ص504.

(66) المصدر نفسه، ج2، ص504.

(67) المصدر نفسه، ج2، ص509.

(68) المصدر نفسه، ج2، ص509.

(69) المصدر نفسه، ج2، ص511.

(70) المصدر نفسه، ج2، ص513.

(71) المصدر نفسه، ج2، ص519.

(72) المصدر نفسه، ج2، ص520.

(73) غمنامة رستم وسهراب، جعفر شُعار، وحسن أنوري، ص44.

(74) المصدر نفسه، ص44.

(75) مجلة دانشكدة أدبيات وعلوم إنساني دانشگاه فردوسى، شمارة چهارم، سال دوازدهم، مقالة" جهان بهلواني، خانم فلاح رستگار. (انظر أيضاً: بديع محمد جمعه، من روائع الأدب الفارسي، ص211- 212.)

(76) فردوسي وسرودهايش، يوكن ادوارد برتلس، ترجمه سيروس ايزدى، ص126.

(77) الأخ غير الشقيق لرستم، وقد دبّر حيلة دنيئة لقتل رستم وحصانه "رخش" إذ أوقعهم في حفرة مملوءة بالرماح، لكن رستم عاجله بسهم فتّاك وهو يهوي مع جواده في الحفرة وأرداه قتيلاً. (لمزيد من الاطلاع أنظر: بيست ويكك گـفتار دربارة شاهنامة فردوسى، منصور فسائي، ص515- 525.)

(78) درآمدى براندیشة فردوسى، سعيد حميديان، ص234.

(79) المصدر نفسه، ص280. انظر أيضاً: محمد ندوشن، داستان داستانها، ص125.

(80) المصدر نفسه، ص280.

(81) شاهنامة فردوسى، ساختار وقالب، ص233. انظر أيضاً: فردوسى وشاهنامه، منوچهر مرتضوى، ص24.

(82) سرچشمه هاى فردوسى شناسى، محمد امين رياحى، ص290.

(83) حماسة رستم وسهراب، ص51.

(84) المصدر نفسه، ص51.

(85) المصدر نفسه، ص52. للمزيد انظر كتاب: "شناخت اساطير ايران، لجابر عناصرى، ص180- 181 حيث يلقى المحارب اليوناني "كريتوس" مصرعه على يد والده "باريس" في المعارك التي دارت حول طرواده؛ لأن قدر "كريتوس" أن يموت على يد والده.

(86) المصدر نفسه، ص ص 53، 61، (انظر أيضاً كتاب "دربارة ادبيات ونقد ادبى"، المجلد الثاني، ص815.)

(87) المصدر نفسه، ص52، 53. (أنظر أيضاً: طه ندى، ادبيات تطبيقى، ترجمه زهرا خسروى، ص212.)

(88) حماسة رستم وسهراب، ص52، (انظر أيضاً: خسرو فرشيدورد، دربارة ادبيات ونقد ادبى، ج2، ص815.)

(89) طبعت بدار الكتب بالقاهرة لأول مرة في جزئين عام 1931 وعام 1932 ثمّ أعيد طبعها في طهران بالأفست عام 1970م. وهي أول ترجمة عربية للشاهنامه، كما أنها الأقرب إلى عصر المؤلف وتحضى بأهمية بالغة لدى محققي الشاهنامه فيما يتعلق بالأبيات التي اعتراها التصحيف.

(90) طبعت في دار العلم للملايين في بيروت، 1977م.

(91) طبع في القاهرة، دار المعارف 1964.

(92) طبع في القاهره، 1977م.

المصادر والمراجع:

طه ندا، **ادبيات تطبيقى**، ترجمه زهرا خسروى، الطبعة الأولى، نشر فرزان، طهران، 1380هـ. ش (2001م).

سيروس شميسا، **انواع ادبي**، (بالفارسية)، الطبعة الرابعة، نشر ورامين، طهران، 1375هـ. ش(1996م).

عبد الحسين زرّين كوب، **باكاروان حُلّه** (بالفارسية)، الطبعة التاسعة، نشر علمى، طهران، 1374هـ. ش (1995م).

منصور فسايى، **بيست ويك گفتار شاهنامه**، (بالفارسية)، الطبعة الأولى، نشرنويد، شيراز، 1369هـ. ش (1990م).

جهانگير كوروجى، **پژوهشهايى درشاهنامه**، ترجمه جليل دوست خواه، (بالفارسية)، الطبعة الأولى، نشر زنده رود، طهران 1371 هـ. ش (1992م).

عروضي سمرقندى، **چهار مقاله**، (بالفارسية)، تصحيح أحمد نژاد، الطبعة الثانية عشرة، نشر امير كبير، طهران، 1384هـ. ش (2005).

منصور فسائى، **حماسة رستم وسهراب**، (بالفارسية)، الطبعة الأولى، نشر نيل، طهران، 1373هـ. ش (1994م).

ذبيح الله صفا، **حماسه سرايى در ايران**، (بالفارسية)، الطبعة الثالثة، نشر اميركبير، طهران، 1352هـ. ش (1973م).

محمد اسلامي ندوشن، **داستان داستانها** (بالفارسية)، نشر آثار ملّى، طهران، 1351هـ. ش (1972م).

سعيد حميديان، **درآمدى بر انديشة فردوسى**، (بالفارسية)، الطبعة الأولى، نشر مركز، طهران، 1372 هـ. ش (1993م).

خسرو فرشيدورد، **دربارة ادبيات ونقد ادبي**، (بالفارسية) المجلد الثاني، الطبعة الأولى، نشر اميركبير، طهران، 1378هـ. ش (1999م).

خجسته كيا، **سخنان سزاوار زنان درشاهنامه** (بالفارسية)، نشر فاخته، طهران، 1371هـ. ش (1992م).

محمد أمين رياحى، **سرچشمه‌هاى فردوسى‌شناسى**، (بالفارسية) نشر مطالعات فرهنگى، طهران، 1372هـ. ش (1993م).

تصحيح بروخيم، **شاهنامة فردوسى**، (بالفارسية)، الطبعة الأولى، نشر بروخيم، طهران، بدون تاريخ.

چاپ موسكو، **شاهنامة أبو القاسم فردوسى**، المجلد الأول، الطبعة الأولى، نشرهرمس، طهران، 1382 هـ. ش (2003).

شاهنامه فردوسى، تصحيح مهدي قريب، ومحمد بهبودى، المجلد الأول، الطبعة الأولى، نشر توس، طهران، 1375هـ. ش (1996م).

هانزن، كُورت هاميزش، **شاهنامة فردوسى**، ساختار وقالب، ترجمة كيكاووس جهانداري، نشر فرزان روز، طهران، 1374هـ. ش (1995م).

سخنرانى‌هاى جشن طوس، **شاهنامة فردوسى وشكوه بهلواني**، (بالفارسية)، مهدى مداينى، الطبعة الأولى، طهران، 1357هـ. ش (1978م).

جابر عناصرى، **شناخت اساطير إيران**، (بالفارسية)، الطبعة الثانية، نشر سروش، طهران، 1382هـ.ش (2003م).

جعفر شعار، وحسن أنورى، **غمنامة رستم وسهراب**، (بالفارسية)، الطبعة الرابعة، نشر قطره، طهران 1374هـ. ش (1995م).

يوكن ادوارد برتلس، **فردوسى وسرودهايش**، (بالفارسية)، ترجمة سيروس ايزدى، نشرهيرمند، طهران، 1370هـ. ش (1991م).

منوچهر مرتضوى، **فردوسى وشاهنامه**، (بالفارسية)، الطبعة الثالثة، نشر مؤسسة مطالعات وتحقيقات، 1385هـ. ش (2006م).

شماره چهارم، سال دوازدهم، **مجلة دانشكده ادبيات دانشگاه فردوسى**، مقاله خانم فلاح رستگار. "رستم جهان بهلوان"

بديع محمد جمعه، **من روائع الأدب الفارسي**، الطبعة الثانية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1983م.